النزعة الدّينية في الشّعر الجزائري القديم

ط.د/ لعزالي حنان

جامعة الجيلالي اليابس– سيدي بلعباس

يعدّ الأدب الجزائري بشطريه النثر والشّعر من أهم القضايا التّي أثارت حفيظة النّقاد، حيث رأوا أنّ هذا الأدب ليس بالأدب الجزائري المحض وإنّما هو أدب مشرقي لكون ما يتميّز به هذا الأدب من رونق وجودة في الأسلوب. فلقد كان هذا الأدب وبالأخص الشّعر يتميّز بالمتانة والعظمة، وقد ظهرت في هذا الشّعر عدّة أغراض شعرية ، فقد كتب شعراء الجزائر في مختلف الأغراض كغيرهم من الشّعراء في المشرق فنظموا في الهجاء والوصف والفخر والمدح والزهد والتّصوف، ولهذا ارتأيت أن أبحث في الشعر الديني الجزائري القديم وبما كان يتميّز؟ ومن هم أهم الشعراء الذّين حملوا لواء هذا الشّعر وذلك من الدّولة الرّستمية إلى غاية الدولة العثمانية مع ذكر أهم النماذج الشعرية في هذا الاتجاه.

ظهرت بوادر النزعة الدّينية في الشّعر الجزائري القديم منذ قيام الدّولة الرّستمية في أوائل القرن الثاني هجري مع مجموعة من الشعراء الذّين حملوا لواء هذا الشّعر كبكر بن حمّاد الشّاعر التّيهرتي الذّي كان أحد رموز هذا الشّعر، وقد تطور هذا الشعر مع كلّ فترة أو حقبة زمنية ظهرت في الجزائر إلى غاية الحقبة العثمانية التّي سبقت الاستعمار الفرنسي، ولهذا ارتأيت أن أتّبع المنهج الوصفي التّاريخي لتتبّع تطور هذا الشّعر عبر كلّ هذه الفترات.

النزعة الدّينية في شعر أفلح بن عبد الوهاب وبكر بن حماد التيهرتي

إنّ حديثنا عن الشّعر الجزائري القديم يعني الحديث عن الدّولة الرستمية، هذه الدّولة التّي بقيت خالدة في التّاريخ لأنّه "ليست هناك دولة من الدّول الإسلامية بهذا القطر كانت تداني هذه الدّولة فيما بلغته من الرقي والازدهار المادي والأدبي"[1]، لقد اهتم الرستميون بالعلم والأدب وسخروا لذلك كلّ الوسائل المتاحة لخدمة الجانب الثّقافي، حيث كانت من مظاهر الثّقافة لديهم الاهتمام بنقل الكتب التّي تظهر بالمشرق في عصر انتعشت فيه الثّقافة العربية، فراح الرستميون يتشربون من منابع العلم والأدب بالمشرق العربي " فعرف إذن الجزائريون الثّقافة ونبغوا في مناحيها منذ عهد سحيق وخصوصا الثّقافة الدّينية"[2] خاصة وأنّ الدّين الإسلامي حديث العهد بالمغرب الأوسط فكان من الطبيعي الاهتمام بالعلوم الدّينية التّي أصبحت تعنيهم لهذا تعتبر الفترة الرّستمية أوّل فترة عرفت الشّعر الدّيني، وذلك لكون أنّ هذه الفترة قد عرفت بروز الكثير من الفقهاء الذّين كانوا في نفس الوقت من أكبر الشّعراء وخير دليل على ذلك الإمام أفلح بن عبد الوهاب هذا الإمام هو أبو سعيد ميمون الأفلح[3] وهو أطول أئمة الدّولة الرستمية مدّة في الملك، كان ميلاده قبل مبايعة جدّه عبد الرحمن بالإمامة في حوالي سنة 150هـ.

وقد دامت مدّة إمامته خمسين سنة[4] كان أفلح بن عبد الوهاب فقيها، كما كان أديبا له نثر ونظم ولم يكن في نثره ونظمه ابتكار، بل كانت آثاره مجموعة من الآراء العامّة المعروفة السائدة، إلاّ أنّ سبكه لهذه الآراء والأقوال المعروفة كان سبكا سائغا جميلا ذا أثر في النّفوس، وتكاد تكون جميع آرائه وتعابيره اقتباسا من القرآن والحديث، ولآثاره قيمة واضحة هي أنّها تمثّل رأي الإباضية في الدّين والأخلاق وفي المسلك العملي في الحياة، هو الذّي نظم قصيدة العلم والتّي كتبها في فضل وأهمية العلم، حيث تضمّنت هذه

القصيدة فضل العلم على أهله وهي قصيدة رائية يتيمة أي أنّه لم يخلف سوى هذه القصيدة التّي تحتوي على 87 بيتا والتّي كان مطلعها :

العلم أبقى لأهل العلم آثارا يريك أشخاصهم روحا وأبكارا

حيّى وإن مات ذو علم وذو ورع ما مات عبد قضى من ذاك أو طارا[5]

فالشّاعر في هذه الأبيات يحاول أن يبيّن لنا النّصائح التّي ينبغي أن يتقيّد بها طالب العلم، وهي أن يكون صبورا متحمّلا لمشقة طلب العلم، وأن يتجنّب المخادعة فيه لأنّ في ذلك ضرر بالإسلام فيقول في ذلك:

وكن بربّك لا بالنّاس معتصما وكفى بربّك رزّاقا وغفّارا

سبحانه صمد لاشيء يشبهه أقررت لله بالتّوحيد إقرارا

كما نجد أنّ هذا الشّاعر قد اقتبس من الحديث الشريف عن أبي الدرداء عن النّبي صلّى الله عليه وسلم قال: ''من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنّة وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع وإنّ العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتّى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء وإنّ الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما وإنّما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر''[6] وذلك في قوله:

يقول طالب علم بات ليلته في العلم أعظم عند الله أخطارا

من عابد سنة لله مجتهدا صام النّهار وأحيا اللّيل أسهارا

فمن هذه الأبيات نكتشف أنّ الله سبحانه وتعالى قد فضّل طالب العلم على ذلك المتعبد وذلك لكون أنّ العالم بعلمه سيفيد نفسه ويفيد غيره، بينما المتعبد فإنّه سيفيد نفسه فقط.

ومن أبرز شعراء هذه الفترة أيضا الشاعر الفقيه بكر بن حماد التّيهرتي، الذّي توفي سنة 296هـ كان شاعرا، عالما بالحديث ورجاله، فقيه من أفاضل المغرب[7]، ويعدّ هذا الشّاعر قد سجّل مكانة في ذاكرة الأمّة الجزائرية وذلك على حسب ما ذكره محمد الأخضر عبد القادر السّائحي في كتابه بكر بن حماد شاعر المغرب العربي في القرن الثالث الهجري[8]، فقد ذاع صيته وعرف بين أقرانه فهو ذلك الأديب المتأدب بعلوم الدّين الذّي راح يسعى في طلب العلم دون أي عناء أو شقاء ولنقف عند هذا الشّاعر وذلك من خلال قصيدته الدالية والتّي يتحدّث فيها عن القبور فيقول في بعض الأبيات من هذه القصيدة:

قف بالقبور فناد الـــــهامدين[9] بها من أعظم بليـــــت فيها وأجساد

قوم تقطعت الأسباب[10] بينـــــهم من الوصول وصاروا تحت أطواد

راحوا جميعا على الأقدام وابتكروا فلن يروحوا ولـــن يغدوا لهم غاد

والله لو ردّوا ولـــــــو نـــطقوا إذا لقالوا: التقى من أفضل الزاد[11]

فالشاعر من خلال هذه الأبيات يحاول أن يذكر القارئ بأنّ لكلّ بداية نهاية ولابدّ أنّ لهذه الحياة نهاية وخاتمتها هي الموت والفناء، فينبغي أن يجهّز العدّة للرّحيل وأن يكون على أتمّ استعداد لمواجهة الله. والشّاعر كما هو معروف لديه يلجأ إلى استخدام اللّغة البسيطة المفهومة حتّى يتيسّر للجميع فهم ما يريد إيصاله من أفكار، كما أنّ الشّاعر قد نظم في قصائد شعرية أيضا في الدعاء، فمن ذلك مثلا قوله:

سقى الله تاهرت المنى وسويقة بساكنها غيثا يطيب به المحل

فهو في هذه القصيدة يدعوا لمدينة تيهرت أن يصبّ عليها غيثا نافعا يجعلها أطيب وأجمل مكان للإقامة.

ومن قصائده أيضا هذه المقتطفات التّي نظمها في القبور، حيث يحاول أن يذكر الغافلين بأنّ بعد الحياة ممات، وبأنّ هذه الدّنيا لا تنفع رغم كلّ ما تتضمنه من مفاتن وإغراءات ، ويحاول أن يوصيهم بأن يجهّزوا العدّة الكافية والنّافعة لملاقاة الله سبحانه وتعالى، وبأنّ الله ينظر إلى المرء من خلال أعماله التّي ستشهد عليه يوم البعث ومن تلك الأبيات قوله:

زرنا منازل قوم لن يـــــزورونا إنّا لفي غفلة عمّا يقـــــــاسون

لو ينطقون لقالوا الزّاد يحكم حلّ الرّحيل فما يرجو المقيمونا

والشّاعر قد نظم في غرض الزّهد كما نظم في باقي الأغراض الشّعرية ونقصد بالزّهد هو ''ضد الرّغبة والحرص على الدّنيا''[12] فيقال زهد في الشّيء إذا لم يرغب فيه، أمّا اصطلاحا فيعني حنين الروح إلى مصدرها الأول لمعرفة الخالق والتّقرب إليه عن طريق الزهد في الدّنيا ومتاعها والرّغبة عن نعيمها وتفضيل نعيم الآخرة عليها[13].

والملاحظ في شعر الزّهد بالمغرب العربي أنّ الشّعراء كانوا ينظمون هذه القصائد بدافع ديني، حيث تمثّلت روح الشّاعر المغربي الزّاهد في رفض الحياة''[14] فالشّاعر الزّاهد يرى أنّ الدّنيا لا تساوي شيئا إلاّ ما قدّمه الإنسان من أعمال لآخرته تلك الدار الأبدية، لتصل هذه الرسالة بلمسة وعظية تذكر الإنسان دوما بالابتعاد عن ملذّات الدّنيا وزخارفها وألاّ يقصّر في عمله للآخرة الذّي يعدّ الهدف الأسمى للزّهد وفي ذلك يقول الشّاعر:

تبارك من ساس الأمور بعلمه وذلّ له أهل السّماوات والأرض

ومن قسّم الأرزاق بين عـــباده وفضّل ببعض النّاس فيها على بعض

فمن ظنّ أنّ الحرص فيها يزيده فقولوا له يزداد في الطّول والعرض[15]

فالشّاعر في هذه القصيدة يحاول أن يجمع بين الاقتناع والحكمة، حيث يذكر الإنسان بأنّ رزقه على الله دون سواه ولا يمكن أن يغيّر ما كتبه الله له.

النزعة الدّينية في شعر عفيف الدّين وابن خميس التّلمساني

لم تقتصر كتابة الشّعر الدّيني على الإمام أفلح بن عبد الوهاب والشّاعر بكر بن حماد التّيهرتي، وإنّما تميّزت كلّ فترة ببروز مجموعة من الشّعراء الذّين كانوا يتميّزون بالنّزعة الدّينية ومن أمثال ذلك الشّاعر الفقيه عفيف الدّين التّلمساني، وهو من شعراء القرن السّابع هجري وهو ''سليمان بن علي بن عبد الله بن علي كومي النّسب، تلمساني المنشأ وهو أحد شعراء مدينة تلمسان حيث تلقى علومه الأولى بها لينتقل بعد ذلك إلى عديد الحواضر العربية والأجنبية لتلقي العلوم، ثمّ استقرّ بدمشق. توفي بدمشق سنة 690هـ عن عمر يناهز 80 حولا''[16].

ولقد انتهج هذا الشّاعر منهج التّصوف طريقة في تهذيب النّفس وتقصّي الحقيقة واتّبع منهج الإمام محي الدّين بن عربي ونقصد بالتّصوف ''هو التّجرد تماما من مباهج الدّنيا ومفاتنها، ومحاولة التّخلص من الجسد ذلك الحجاب الذّي يحول دون التّمتّع بالنّور الإلهي الفيّاض على الكون والفناء في الذات العلية فناء يقترن بالعشق الإلهي''[17].

كان هذا الشّاعر مولعا بشعر التّصوف الذّي يعدّ أحد أنماط الشّعر الدّيني الذّي كان كثير الانتشار، إلاّ أنّ شعر هذا الأخير يختلف اختلافا كلّيا عن شعر بكر بن حماد، وهذا الاختلاف يمسّ الجانب الأسلوبي وكذلك من ناحية الألفاظ، فعفيف الدّين يعمد إلى استخدام المعجم الصّوفي الذّي يصعب فهمه، ومن شعره الصّوفي:

شهدت نفسك فينا وهي واحدة كثيرة ذات أوصـــاف وأسماء
ونحن فيك شهدنا بعـــد كثرتنا عينا بها اتّحد المرئي، والرّائي
فأول أنت من قبــل الظّهور لنا وآخر أنت عــن النّازح النّائي
وباطن في شهـود العين واحده وظاهر لامتيازات الإبــداء[18]

فهو في هذه القصيدة يحاول أن يصوّر لنا حبّه لله وقوّة إيمانه، كما نجده يصوّر لنا في أبيات أخرى بعض من حالات التّضرع والورع لله ومن ذلك قوله:

أحبّ حبيبا لا أسمّيه هـــيبة وكتم الهوى للقلب أنكى وأنكأ
أخاف عليه من هواي فكيف أغار عليـــه من سواي وأبرا [19]

هذا فيما يخصّ شعر عفيف الدين التّلمساني لنوليّ وجهتنا نحو شعر ابن خميس التّلمساني، هذا الشّاعر الذّي ولد سنة 650هـ أو قبلها بقليل بعاصمة دولة بني زيان تلمسان[20] وبها كان منشؤه ومرباه، وقد اتّسم قسم كبير من حياته بالغموض فلا حديث في المصادر والمراجع التّي وصلتنا عن طريقة عيشه في طفولته وكيف كانت تربيته وكما ذكر البستاني في كتابه عنوان الدراية فقد كان يعيش في أسرة بسيطة فقيرة، ما جعله يجعل من الشّعر وسيلة للتّكسّب يمدح الملوك سواء ملوك بني عبد الواد أو ملوك سبتة، وكما ذكر الكاتب أيضا فقد كان هذا الشاعر يعتمد اعتمادا كلّيا على نفسه في بناء شخصيته الأدبية.

كما أنّ ثقافة الشّاعر الدّينية والأدبية والتّاريخية تدلّ على أنّ الشّاعر قد تعلّم كما تعلّم أبناء عصره، حيث بدأ في المرحلة الأولى من حياته بحفظ القرآن الكريم بكتاتيب أو مساجد المدينة، ثمّ انتقل في مرحلة ثانية على دراسة النّحو واللّغة والأدب والفقه، كما كانت الطريقة المتبعة آنذاك في التّعليم وأخيرا تخصّص في العلوم الدّينية والأدبية.

ولقد كان شأن ابن خميس التلمساني كشأن غيره من الشّعراء القدامى، فقد طرق مختلف الأغراض الشّعرية من مدح وحنين وفخر وزهد وحكمة ووصف وغزل إلى غير ذلك من الأغراض الشّعرية ومن شعر ابن خميس في غرض الزّهد يقول:

فلا ترج من دنياك ودّا وإن يكن فما هو إلاّ هو مثل ظلّ سحاب
وما الحزم كلّ الحزم إلاّ اجتنابها فأشقى الورى من تصطفي وتحابي[21]

فالعنصر الدّيني يظهر جليّا في هذه القصيدة، حيث أنّ الشّاعر يحاول أن يبيّن لنا أنّ هذه الدّنيا لا تساوي أيّ شيء وينبغي على الإنسان ألاّ يتعلّق بها فما هي إلاّ لحظات وستنتهي، بينما يوصيه بأن يهتمّ بالحياة الثّانية التّي يجب أن يعدّ لها العدّة اللاّزمة حتّى يبقى مرتاح البال.

كما أنّ في شعر ابن خميس التلمساني الكثير من الألفاظ التّي تنمّ عن ثقافته الدّينية، فهو الذّي كان يستشهد ويتأثّر بالقرآن الكريم، بل إنّ من تراكيبه الشّعرية ما يشهد على هذا التّشبع الرّوحي، وهذا العكوف على القاموس الدّيني عامة وعلى القاموس

القرآني على وجه الخصوص، والأكثر من ذلك أنّ هناك بعض الألفاظ في شعره تعدّ في حدّ ذاتها تنمّ عن تشبعه بالثّقافة الدّينية كقوله في أمراء بني عبد الواد:

وكم أرجفوا غيظا بها ثمّ أرجدوا فيكذّب إرجاف ويصدّق إرجاء

فإذا ما تأمّلنا كلمة (إرجاف) فإنّنا نلحظ بأنّها مأخوذة من قوله تعالى: "لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا" (الأحزاب: 60) فإذا ما ولجنا في القاموس الدّيني لمعنى كلمة (إرجاف) فإنّنا نجدها تدلّ على الاضطراب والخوف وإثارة الفتن والإشاعات السيّئة.

ومن الأمثلة التّي تدلّ أيضا على ثقافته الدّينية العميقة قوله:

وطأت لي الدّنيا فلا عوج فيما أرى منها ولا أمت

حيث نلحظ أنّه في قوله (لا عوج فيما أرى منها ولا أمت) أنّها مقتبسة من قوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا" (سورة طه: 105-106-107).

إذن هكذا كان الشّعر الجزائري القديم، وخاصة الشّعر الدّيني الذّي تميّز بظهور نخبة من الشّعراء الفقهاء الذّين زيّنوا وأغدقوا في شعرهم الكثير من اللّمسات الدّينية التّي تراوحت بين الزهد والتصوف. وقد ظهر هذا الاتجاه نتيجة تأثّر الشّعراء بالثّقافة الإسلامية ولكونهم اهتموا بدراسة وقراءة القرآن الكريم وذلك لانتشار الزوايا والمساجد والكتاتيب بتلك الفترة، فلم تمر فترة في الشعر الجزائري القديم إلاّ وتميّزت بظهور نخبة من هؤلاء الشّعراء الذّين زيّنوا هذه الفترة بشعرهم الدّيني، هذا ما جعل الشّعر الجزائري القديم يحتل مكانة مرموقة، فقد كان يتمتّع بالتّنوع في الأغراض الشّعرية، وهذا إن دلّ على شيء إنّما ينمّ عن ثقافة الشّعراء الجزائريين الأدبية التّي كان العامل الأول والأخير فيها هو اتصالهم بالأئمة ودراستهم بالزوايا والكتاتيب، إلاّ أنّ الكثير من هذا الشّعر لا يزال مغمورا حبيس أدراج تتآكل وريقاته لولا جهود بعض الباحثين الذّين سعوا جاهدين إلى إخراج جزء من هذا الأدب إلى النّور، هذا الأدب الذّي لطالما قيل أنّه أدب مشرقي وذلك لحسن ومتانة سبكه.

الهوامش:

1- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج1، د.س، ص235.

2- محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، د.س، ص73.

3- رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، ط2، الجزائر، 1981، ص170.

4- عمار عمورة، الجزائر بوابة التّاريخ(ما قبل التّاريخ إلى 1961)، د.ط، 2006، ص896.

5- العربي دحو، الشعر المغربي، د.ط، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص ص207-208.

6- رواه أبو داوود والتّرمذي.

7- خير الدين الزركلي، الأعلام، ط15، بيروت، دار العلم للملايين، 2002، ص73.

8- محمد عبد القادر الأخضر السائحي، بكر بن حماد شاعر المغرب العربي في القرن الثالث الهجري، د.ط، الجزائر، وزارة الثقافة، 2007، ص09.

9- الهامدين، الأموات يقال: كاد يهمد من الجوع فهو هماد وهمد وهميد أيّ ميّت.

10- جمع سبب وهو كلّ شيء يتوصّل به إلى غيره وأصله الحبل يتوصّل به إلى الاستعلاء ثمّ أستعير لكلّ ما يتوصّل به إلى أمر من الأمور.

11- رمضان بن شاوش، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التّيهرتي، ط1، مستغانم، مطبعة علوية، 1966، ص80.

12- ابن منظور، لسان العرب، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003، ص242.

13- ينظر: سراج الدّين محمد، الزهد في الشّعر العربي، ص05.

14- سعد بوفلاقة، دراسات في أدب المغرب العربي، ط1، الجزائر، منشورات بونة،2007، ص108.
15- محمد بن رمضان شاوش، الدّر الوقاد من شعر بكر بن حماد التّيهرتي، ص76.
16- عبد القادر بوعرفة الهلالي، أعلام الفكر والتّصوف بالجزائر،د.ط، وهران، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2004، ص52.
17- عرفات عبد الحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، د.ط، بيروت، دار الجيل، 1993، ص131.
18- عفيف الدّي التّلمساني، الديوان، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص12.
19- نفس المصدر، ص271.
20- محمد العبدري، الرحلة العبدرية أو المغربية، د.ط، الجزائر، 1964، ص11.
21- طاهر توات، ابن خميس التلمساني حياته وشعره، ط1، الجزائر، الملكية للطباعة والنشر،2007، ص58-59.